الخطابة والجمعة

أوجب الله الجمعة فرضا كسائر الفروض العينية ، قال تعالى : « وإذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » . وقال عليه الصلاة والسلام : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » .

وإن فى هذا التشديد والتعظيم ، لحكمة وراءها الخير النافع للمسلمين. فصلاة الجمعة إنما هى بمثابة اجتماع يجمع شمل المسلمين ، ويوحد صفوفهم ، ويؤلف من كلمتهم ، فما أشد حاجتنا الى شخصية يكون لها فى الخطابة أوقع الأثر فى نفوس المسلمين ، وما أحوجنا الى خطابة تعالج مشكلاتنا وأحوالنا فتهدينا الى الخير تارة وتذودنا عن الشر أخرى ... لقد كان المسجد فى صدر الإسلام وما بعده من العصور القريبة له يقوم بشتى النواحى الاجتماعية والخلقية ، فالخلفاء ونوابهم كانوا يخطبون فى المشكلات الحاضرة ، كلما حزبهم أمر أو حلت بهم نازلة ، هذا هو شأن المسجد إبان صدر الاسلام . ولكن الأمور تغيرت والأحوال تبدلت فأصبح المسجد لا يحظى بالاجتماع إلا يوم الجمعة فى كل أسبوع . ويا ليت الأمر وقف عند هذا . بل إننا نجد الكثير من الناس وغالبهم من الشباب المثقف انصرفوا عن المسجد حتى فى يوم الجمعة . وقد يكون لهؤلاء بعض العذر فى ذلك . لأن خطبة الجمعة التى يترقبها المصلون بعيدة عن مشكلاتهم وأحوالهم وما يحيط بهم من ظروف فأئمة مساجدنا وخطباؤها لا يزالون ، غفر الله لهم ، ينهجون القديم ، لأنه قديم ، ولو كان خالى المنفعة . كل ما فى خطبهم (اتقوا الله) إجمالا فى غير تفصيل. فلا تحرك نفساً ولا تحيى همة ، يتبعها سجع مبتذل ركيك ، دون فى العصر المملوكى وما بعده من العصور التى انحطت فيها اللغة العربية ، وضعفت. ومما سبب عدوى هذا المرض أن أولئك دونوا لنا هذه الخطب . وهى والحق يقال لا تصلح أن تكون خطباً لأزمانهم. فضلا عن كونها تفى بالغرض فى عصرنا الحاضر. أساليبها تميت الهمم وتفتر العزائم . وتبعث فى النفس السأم والملل . لذلك يضيق المصلون ذرعا بالخطيب لأنه أطال فى الخطبة وأسهب . والحقيقة أنها أقل من أن تكون خطبة للجمعة . ولكن ثقل الألفاظ وكثرة تكرارها فى كل أسبوع. وعدم التجديد فى الموضوعات بحيث تلائم ما تقتضيه الظروف . كل هذا جعلها أثقل من جبل أحد على قلب كل مصل . وقد يتطور هذا الضجر بالمستمع فيكون من العوامل التى تسبب تكاسله فى أداء فريضة الجمعة التى يقول فيها النبى ﷺ : (من ترك ثلاث جمع تهاوناً طبع الله على قلبه) .

إن لكل زمن أسلوبه وطريقته ، ولكل زمن مشكلاته وظروفه وأحواله الاجتماعية . فلا يجب أن نقيد أنفسنا ونلزمها بما لم يفرضه الله علينا .

والوعظ والارشاد ليس له زمن خاص أو وقت خاص. وإنما هو يتمشى مع الظروف وأحوالها ، والمجتمعات ومشكلاتها . إن الخطب القديمة لم تنص على ما يحدث بيننا من كوارث ومانشعر به من مصائب . وما تكيده لنا الأمم بين عشية وضحاها . فكل هذا لم تتعرض له دواوين القدماء وخطبهم المنبرية . لقد غدت الخطبة عند بعض الخطباء شيئاً رسمياً يؤدى على المنبر بأى صورة وكفى بذلك ، فضاعت الحكمة والغرض المقصود من الاجتماع يوم الجمعة فدب الضعف الخلقى بالنفوس.